ورقة من تاريخ الاستشراق في المانيا

يوهان يعقوب رايسكه

عن الاستاذ دكتور يوهان فيوك

قام الاستاذ الشهير يوهان فيوك J. Fück فى سنة ١٩٤٣ بوضع مؤلف ذى اهمية فائقة عن تأريخ الاستشراق والمستشرقين فى اوروبا من اوائل دراسات اللغة العربية الى القرن التاسع عشر ؛ ثم اتم هذه الرسالة فيا بعد ونشرها فى كتاب عنوانه :
Die arabischen Studien in Europa, Leipzig 1955
نود ان نورد هنا باباً من هذا الكتاب عن اول من جعل علم اللغة العربية علماً ودرساً مستقلا ، وهو يوهان يعقوب رايسكه J. J. Reiske الالمانى (١٧١٦ الى ١٧٧٤) .

كان اول من اعتنى باللغة العربية علماء الكنيسة المسيحية الذين بذلوا جهدهم فى درس لغة المسلمين غير ان هدفهم لم يكن هدفاً علميا بل انهم ارادوا الرد على الاسلام على اساس تراجم لاتينية للقرآن و«اهداء» المسلمين بواسطة تراجم عربية للأنجيل والكتب الاخرى ، اى ان غرضهم كان بعيدا عن تحقيق عادل ودراسة علمية . ولم يتغير هذا الوضع فى بلاد الغرب كلها حتى القرن السادس عشر تقريبا عندما اشتدت الرغبة لدى اهل الغرب فى ارسال المبشرين الى البلاد الإسلامية بعد ان فتح الاتراك مدينة استانبول سنة ١٤٥٣ . ثم اخذ بعض اهل العلم يؤمون الشرق ليحصلوا على مخطوطات عربية من استانبول ودمشق وغيرها من مدن الشرق ولتعلم اللغة العربية فى هذه المنطقة . وكان اول هؤلاء المستشرقين ويلهلم پوستل W. Postel الفرنسى الاصل الذى ارسله ملك فرنسا ، فرانس الاول ، سنة ١٥٣٤ الى مصر ثم الى استانبول حيث تعلم العربية والتركية والعبرانية وقليلا من اللغة الحبشية . ولما رجع پوستل الى وطنه عينه الملك استاذا للغات الشرقية فى جامعة باريس سنة ١٥٣٧ فألف فى تلك السنين كتابا فى النحو العربى اشار فيه الى اهمية اللغة العربية وادبها ولكن امله فى درس هذه اللغة كان فتح باب جديد للمبشرين النصارى فى بلاد الاسلام . ونجد فى كتابه هذا اخطاء بلا عدد ونستدل منه على ان معرفته بالعربية كانت ضعيفة غير كافية مع نشره فى اخر كتابه ترجمة لاتينية لسورة الفاتحة .
اما المخطوطات التى كان پوستل قد اتى بها الى اوروبا فقد باعها الى مكتبة جامعة هايدلبرج عندما وقع فى ضيق مالى وجرى عليه ما جرى من الحوادث الغريبة ؛ واصبحت هذه المخطوطات اساساً مهماً بنيت عليه دراسة اللغات الشرقية فى المانيا فى مهدها . فقام بعض اللاهوتيين بدراسة تراجم الانجيل العربية التى وجدت فى المخطوطات المذكورة ، وكان يعقوب كريستمان Christmann (١٥٥٤ الى ١٦١٣) الذى تعلم اللغة العربية من كتاب النحو لپوستل اول من غرض على الامير يوهان قاسيمير تشكيل كرسى خاص للدراسات الشرقية وبالخاصة العربية فى جامعة هايدلبرج ، وكان ذلك فى عام ١٥٩٠ غير ان هذا الاقتراح لم ينفذ قبل سنة ١٦٠٩ .
مع ان كريستمان ومن تبعه فى المانيا فى ذلك الزمان جعل من دراسته للعربية وسيلة لنشر النصرانية فى الشرق فقد قام فى فرنسا عالم بمنهاج اخر ، وهو يوسف سكاليجر Scaliger (١٥٤٠ الى ١٦٠٩) ، احد تلامذة پوستل . وكان هذا اول من الم بعلم عميق عن مختلف مناهج ضبط التواريخ فى الشرق والغرب وقام بجمع اخبار التقاويم لدى الملل والنحل كما سبقه فى ذلك العالم المتبحر البيرونى فى «كتاب الآثار الباقية عن القرون الخالية» من نحو ستة قرون مضت ، وقارن سكاليجر بين هذه التقاويم حتى انه الم بخصوصية التاريخ الهجرى وكان هذا غير معروف عند اهل الغرب ، ووقف ايضا على التأريخ الجلالى الذى ابدعه الرياضيون فى دولة السلطان ملكشاه السلجوقى (المتوفى ١٠٧٢) . ومن هنا تبدأ الدراسة الحقيقية لتأريخ الاسلام .

وفى هذا العصر ظهرت لاول مرة الحروف العربية فى الطبع فى اوروبا مع كونها غير حسنة الشكل . وازدادت معرفة العلماء بالطب العربى وارتباطهم بهذا العلم الذى كان مشهورا فى الغرب منذ القرون الوسطى على يد التراجم اللاتينية .
اما المملكة التى لعبت دوراً كبيراً فى تطور الدراسة الشرقية فهى هولاندا، وكان تومس اربنيوس Erpenius (١٥٨٤ الى ١٦٢٤) اول من قام بنشر متن مأخوذ من الادب العربى فى اوروبا عندما طبع فى سنة ١٦١٥ «كتاب الامثال» للميدانى ؛ والف ايضا كتاب النحو العربى الذى كان يستعمله كل من اراد درس العربية فى الغرب نحو قرنين اى الى ان نشر سيلفستر دى ساسى S. de Sacy كتابه المشهور فى النحو العربى فى عام ١٨١٠ . واعتنى اربنيوس ايضا بطبع سورة يوسف . إن ما ابتدأ به هذا العالم اتمه خليفته فى جامعة لايدن ، يعقوب جوليوس Golius (١٥٩٦ الى ١٦٦٧) الذى نشر عدداً من الآثار العربية المشهورة ، منها «لامية العجم» للطغرائى و«عجائب المقدور» لابن عربشاه ، وتوج آثاره بتأليف قاموس عربى — لاتينى . زد على هذا انه اشترى فى اثناء سياحته فى سوريا وتركيا نحو ٢٥٠ مخطوطة عربية مازالت محفوظة فى مكتبة لايدن الى الآن ، واضاف اليها فيما بعد وارنر Warner ، احد تلامذة جوليوس ، ما يقارب من الف مخطوطة ذات قيمة ، فاصبحت مدينة لايدن مركزاً لتحصيل العربية فى اوروبا . ومما يدعو للاسف اننا نجد بعد ذلك فى الجامعة نفسها استاذا آخر اى البرشت شولتنس Schultens (١٦٨٦ الى ١٧٥٠) الذى يعتبر مثالا مثيلا لهؤلاء العلماء الذين لم يدرسوا اللغة العربية لقيمتها الادبية اوللتعمق فى تاريخ الاسلام اولدرس تطور الادب عند المسلمين بل لاستعمالها وسيلة لدرس العهد القديم واللغة العبرانية .
وعاش فى ايام هذا المستشرق الفلمنكى عالم الذى اسمه يوهان يعقوب رايسكه يستحق بان يدعى اول مستشرق حقيقى فى عهد غير ملائم للدراسات العربية ومن المدهش والجدير بالذكر انه قام بهذه الدراسة وادام عليها على الرغم من المصاعب التى اصابته فى ابان حياته .

ولد رايسكه فى عائلة دباغ فقير فى ٢٥ كانون الاول سنة ١٧١٦ فى قرية تسوربيج Zörbig فى مملكة سكسونيا ، وحصل على تربيته الثانوية فى الميتم المشهور فى مدينة هاله (وكان هذا الميتم الذى أسس سنة ١٦٩٥ مدرسة ذات شهرة فى ذلك العهد) وبقى فيه من سنة ١٧٢٨ الى سنة ١٧٣٢ ، واخذه «شوق لايوصف وغير قابل التقمع لتعلم اللغة العربية» لم يدر الشاب ما سببه ، وعندما ابتدأ بدراسته فى جامعة لايبزج عام ١٧٣٣ اختار مواضيع تحصيله مستبداً برأيه وشرع فى دراسة اللغة العربية بنشاط كبير وتوفق فى درس النحو العربى دون الأخذ بمعونة اى معلم ما مستندا على موهبته الخاصة لتعلم اللغات فقط . وسعى ان يشترى كل ما وجد اذ ذاك فى اوروبا من الكتب العربية المطبوعة رغم فقره المدقع وكونه فى حاجة الى ضروريات الحياة لان والديه الفقيرين لم يستطيعا ان يعطياه اكثر من ٢٠٠ تالر فى مدة خمس سنوات (وكان التالر يساوى الدينار او اقل منه) . وفى سنة ١٧٣٥ بدا له ان يتجرأ على مطالعة «عجائب المقدور» لابن عربشاه ، وهذا كتاب مسجع صعب الاسلوب ، ولعلمه بنقائص الكتاب المنشور على يد جوليوس واغلاطه سافر فى شتاء ذلك العام الى مدينة دريسدن ، وكان معلوماً لديه ان احد مأمورى المكتبة الملكية هناك يملك نسخة مصححة مستندة على نسختى هذا المؤلف المحفوظتين فى مكتبة باريس ، فاستنسخها رايسكه باذن صاحبها . وقد اكمل الشاب مطالعة كل ما كان موجودا من الكتب العربية المطبوعة فى سنة ١٧٣٦ — اى لما اتم من عمره عشرين سنة ! — وفى هذه السنة ترجم الى اللاتينية رسالة هرمس المثلث بالحكمة التى كان مخطوطها محفوظا فى مكتبة لايبزج ، فقال المستشرق الكبير ه . ل . فلايشير Fleischer عن هذه الترجمة سنة ١٨٧٠ ، اكثر من قرن بعد وفاة المؤلف : «انه لم يعد يوجد الآن شاب ابن عشرين سنة يستطيع القيام بترجمة احسن منها حتى ولوكان حاصلا على افضل التعليم ومتلقنا اصح الوسائل» وعبر كذلك عن رغبة واحدة يقول : «ليتنى اجتنبت غلطات رايسكه ، ولا ارغب فى فضل اخر» . بعد ذلك كان على رايسكه ان يحصل على مخطوطات عربية فبعث اليه المؤلف الشهير لكتاب Biblia Hebraica وهو يوهان كريستوف ڤولف Wolf فى مدينة هامبورج (من ١٦٨٣ الى ١٧٣٩) بنسخة من مقامات الحريرى من مجموعته الخاصة ، ونشر رايسكه المقامة السادسة والعشرين بمتنها العربى وترجمتها الى اللاتينية استناداً الى هذه المخطوطة وإن سمى هذا التأليف فيما بعد eine elende Schülerprobe وسريعا ما تحسنت ترجماته وتفوق الاولية . واقرضه ڤولف المذكور مخطوطات اخرى لكى يتصرف بها فكان رايسكه ممنونا له لفضله هذا طول عمره . وكان كلما ازداد تعمقاً فى الادب العربى ازداد شغفا به ، واصبحت

امنيته الكبرى ان يكرس حياته لهذا العلم ويبذل كل وقته لهذا الهدف . ولم يكن ذلك ممكنا الا بدخوله مكتبة لايدن المشهورة وخزينة المخطوطات المحفوظة بها المسماة «بوقف وارنر» . عزم رايسكه على السفر الى هولاندا رغم المشكلات العظيمة ، فرحل فى شهر مايو سنة ١٧٣٨ متوجها اولا الى هامبورج حيث قابله المؤلف ڤولف المذكور بكل لطف وقدمه ايضا لرايماروس Reimarus ، عالم واسع الصيت . ثم تابع رايسكه سفره الى مدينة امستردام وزار هناك الدكتور دورفيل d'Orville ، احد اساتذة اللغات القديمة وكان الاستاذ ڤولف قد كتب له خطاب توصية ، فود الاستاذ دورفيل ان يتخذ رايسكه معاوناً له ، ولكن الشاب الذى كان شغفا بمطالعة المخطوطات العربية لم يرد قبول الارتباط بوظيفة ما وردّ هذا العرض مع انه لوكان قبله لحسنت وضيعته المالية تحسنا ملحوظا ؛ ولكنه رفض القبول حتما كيلا يضيع الوقت اللازم لمطالعة الكتب الشرقية .

ومع ذلك فقد قدم الاستاذ دورفيل له خدمات جميلة طيلة اقامته فى هولاندا وكان يوكله بقراءة التصحيحات لبعض كتبه وما يشبه ذلك من الاعمال الادبية والعلمية ومن التراجم كما كان يقوم بتسديد بعض مصاريفه فى اواخر اقامته بلايدن .

وصل رايسكه مدينة لايدن فى ٦ حزيران ١٧٣٨ وقام فى الحال بزيارة المستشرق شولتنس فعرف منه انه لا توجد هناك منح دراسية للطلبة الاجانب وان عطلة الصيف ستبدأ عن قريب . وقد زاد من غمه انه لم يسمح له بدخول المكتبة لعجزه عن ايفاء الرسوم . فصار مصححا عند احد الكتبيين ، وهو يوهان لوزاك ، الذى اعطاه بدلا لخدمته غرفة وطعاما فقط . وكان يحصل القليل من المال باعطاء دروس خصوصية باللغة اليونانية والمكالمة باللاتينية للطلاب الهولانديين . وعندما تابع شولتنس التدريس بعد التعطيل الصيفى اصبح رايسكه تلميذا له وحصل بمساعدته على الاذن بمطالعة المخطوطات التى طالما اشتاق لرؤيتها .

وكانت رغبته الاولى التعمق فى آثار المؤرخين وكتب الجغرافيا ، ولكن شولتنس اوصاه بدرس الشعر العربى . فنسخ الشاب سنة ١٧٣٩ ديوان جرير ، ولامية العرب للشنفرى ، وديوان الطهمان ، وفى السنة التالية الحماسة للبحترى ، واما معظم اوقاته فصرفها فى مطالعة اشعار الجاهلية الاكثر شهرة ، اى المعلقات . ودرسها فى مخطوطين «وارنر ٢٩٢ و وارنر ٦٢٨» مع شرح التبريزى وشرح النحاس ؛ واختار اطولها ، وهى معلقة طرفة ، للتهذيب والتصحيح ، واتم هذا العمل او القسم الاكبر منه ، عام ١٧٤٠ ، ولكن الطباعة لم تتم الا بعد سنتين اى فى عام ١٧٤٢ ؛ ويحتوى كتابه هذا على المتن العربى بلا حركات مع ترجمته اللاتينية وحواش له ، وشرح النحاس ؛ وبعد ان يعلق المؤلف على الترجمة والحواشى بعض الملاحظات يظهر كيف تطورت افكار الشاعر ويوضح موضوعات القصيدة واحدا بواحد كما يفسر ايضا الاشكال الشعرية وطرز البلاغة بمعونة كثير من الابيات والعبارات المأخوذة عن المعلقات الاخرى وعن ديوان الهذلية والحماستين واشعار المتنبى وابى العلاءالمعرى وسائر الشعراء ؛ وتعالج المقدمة انواع مخطوطات المعلقات وحواشيها وشروحها والاسماء التى تعرف بها ، ويقدم للقراء محتويات كل واحدة منها ويزيد المعلومات عن مجرى حياة مؤلفيها ، ويبحث فيما بعد حياة طرفة بالتفصيل كما انه يضيف ايضا جدولا للانساب تبدو منه علاقة القرابة بين طرفة وسائر الشعراء فى جزيرة العرب ويمكننا بواسطة ضبط التواريخ التى اقترحها رايسكه فى مقدمة تاليفه هذا . وكان رايسكه بهذا العمل اول من سلك الطريق الذى يسلك الى الآن فى الغرب عند شرح آثار الشعراء العرب ، ومن المسلم به ان هذا الطريق هو احسن طريق يهدى بالشارح الى غايته العلمية .

ومع ذلك فان المنهاج الجديد كان بعيداً جداً عن الطرق التى بحث فيها الاستاذ شولتنس عن اصول اللغات السامية فى غمائم خياله ، ولم يقم رايسكه فى تأليفه بذكر مثل هذه التخيلات الغير معقولة : ان من اقتنع ببراهين رايسكه على ان المعلقات من شعر القرن السادس الميلادى فهو يعرف بان لا ثقة بما زعمه شولتنس عن الشعر العربى القديم العهد . اما شولتنس فلم يعرف كيف يفهم كتاباً فى العربية موضوعه لا علاقة له بتفسير التوراة ولا بنظريات اللاهوتيين .

ووقعت لذلك ولسبب اخر مناقشة شديدة بين هذين الرجلين المختلفى الاخلاق غاية الاختلاف . اما رايسكه فلم يبال بما قاله الكثيرون وثابر على سلك الطريق الذى عرفه صحيحا وطيدا ، ولم يكن له علاقة ما بعلم اللاهوت ، ولم يكترث بالسؤال هل لعلم التوراة ودرس اللغة العبرية اى فائدة من جراء درس العربية ام لا . ولم يكن باستطاعة الاستاذ شولتنس اقناع تلميذه هذا بان يتعلم اللغات السامية الاخرى غير العربية لان رايسكه كان قد ادرك ان هذا لن يجلب اثمارا مرضية لدرس علم اللغة العربية وادبها ، وعرف ان درس مشتقات الكلمات تلاعب على اساس جذور فرضية وان السعى لمعرفة المعنى الابتدائى للكلمات المشتركة فى اللغات السامية ما هو الا خرافات باطلة .

11

und mein damaliger Hauswirth, der Kriegsrath Lange, mir verschaffen, die habe ich nur in den letzten Jahren meines hiesigen Studentenlebens genossen. Ich hätte sie noch länger genießen können; allein um das Jahr 1738 fuhr mir die Reise nach Holland in den Kopf, und ich war davon nicht abzubringen. Keine Vorstellungen der Gefährlichkeit einer Reise in ein fernes Land, ohne Geld, fielen mir bey, oder hatten auf meine, damals noch kindisch hitzige und der Welt unkundige Seele, einige Gewalt.

Ich sollte, ich mußte Leyden sehen. Darüber ließ ich alle in Händen habende Vortheile fahren. Meiner Reise nach Leyden, und dem Durste, die dortigen arabischen Manuscripte zu durchwühlen, opferte ich alle Aussichten meines künftigen Glückes auf. Das ist mir übel bekommen. Theuer, gar theuer, habe ich meine Thorheit büßen müssen! Ich bin zum Märtyrer der arabischen Literatur geworden! Ach, wenn doch mein damaliger brennender Durst nach dieser Literatur, der mich nur unglücklich gemacht hat, weil er zu frühzeitig kam, in einem Jahrhunderte, das ihn nicht brauchen, mithin auch nicht schätzen, und nicht belohnen, noch aufmuntern konnte, in eine Seele führe, die etwa einmal glücklichere Zeiten beleben möchte! wenn dergleichen Zeiten etwa einmal (wiewohl das nicht zu hoffen steht,) einbrechen sollten, da man die arabische Literatur höher achten, und fleißiger treiben wird, als man itzt thut. Ein Geist, mit einer

solchen

صحيفة عن مذكرات الاستاذ رايسكه كتب فيها «اصبحت شهيد الادب العربي ...»

THARAPHÆ

MOALLAKAH

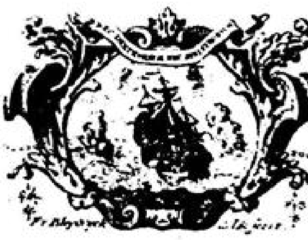
cum Scholiis

NAHAS.

e MSS. Leidensibus

Arabice edidit, vertit, illustravit

JOANN. JACOB. REISKE.



LUGDUNI BATAVORUM,

Apud JOANNEM LUZAC.

MDCCXLII.

عنوان كتاب رايسكه عن معلقة طرافة.

حتى انه اعلن «ان اراد المرء ان يساعد على رواج دراسة العربية فعليه انه لا يدرسها كالاهوتي» . وثار ضميره كنفقيه فى اللغة على طريقة شولتنس الهوائية فى معالجة النصوص العربية وكيف كان يتفادى الصعوبات إما باهمال الكلمات التى لم يفهم معناها دون ذكر ذلك او بتغييرها تعسفا . لقد كان على علم بأنه لا يكفى لاصدار نشرة صحيحة كون المخطوط قائما على اسس سليمة فحسب بل القدرة على النقد ومعرفة اخطاء النقل وتكهن المعنى الذى يقصده المؤلف من القرينة واصلاح مواضع فساد المخطوطة بتصحيحات تناسب اصطلاحات المؤلف .

كلفته ادارة المكتبة فى لايدن بتبويب وتنسيق المخطوطات العربية ، ورحب رايسكه بهذه الفرصة التى امكنته من تدقيقها كلها فنسخ ما علق بها من الآثار ، مثلا المعارف لابن قتيبة ، والتأريخ والجغرافيا لابى الفداء ، وتأريخ حمزة الاصفهانى ومقتطفات من طبقات الاطباء لابن ابى اصيبعة وغيره . ولكنه لم يمكنه الحصول على درجة الدكتوراه فى كلية الاداب فى جامعة لايدن لان شولتنس ابى ذلك عليه إذ انه كان يريد ان يعين ابنه خليفة له على كرسى الدراسات الشرقية . وود لو رايسكه ترك دراسة العربية تماما . لذلك افهم العالم الالمانى ان وضعيته بائسة بلا امل واقنعه بان يدرس قليلا من الطب ، فدرس رايسكه الطب لمدة بعض اشهر وحصل على درجة دكتور طب فى شهر مايو سنة ١٧٤٦ استناداً الى ما كان قد جمع من معلومات طبية من المؤلفات العربية مع ان اللاهوتيين فى لايدن اقاموا مشكلات جديدة مدعين انه كان مادياً لما عرضه من الابحاث العلمية فى امتحانه . سافر رايسكه فى ١٠ حزيران ١٧٤٦ من هولاندا ووصل مدينة لايبزج فى اوائل شهر تموز . ولما لم يرغب فى اجراء الطب فعلا وجب عليه ان يكسب يوميته بتصحيحات الكتب وباعطاء دروس خصوصية وبتراجم وما شابه ذلك من الاشغال غير المجدية . ولكن المهم انه بقى لديه وقت لمتابعة العربية ؛ والف فى شهر آب ١٧٤٧ كتاباً لاتينية عنوانه :

Prodidagmata ad Hagji Chalifae librum memorialem rerum a Muhammedanis gestarum exhibentia introductionem generalem in historiam sic dictam orientalem

36 THARAPHÆ

94 فلو كنت وغلا في الرجال لضرني عداوة ذي الاصحاب والمتوحد ۞
95 ولكن نفي عني الرجال جراتي عليهم واقدامي وصدقي ومحتدي ۞
96 لعمرك ما امري على بغمة نهاري ولا ليلي على بسرمد ۞
97 ويوم حبست النفس عند عراكها حفاظا على عوراتها والتهدد ۞
98 على موطن يخشى الفتى عنده الردي متى تعترك فيه الفرائص ترعد ۞
99 واصفر مضبوح نظرت حواره علي النار واستودعته كف مجمد ۞
100 ستبدي لك الايام ماكنت جاهلا ويأتيك بالاخبار من لم تزود ۞
101 لعمرك ما الايام الا معارة وما استطعت من معروفها فتزود ۞

94 الوغل الضعيف الخامل الذي لا ذكر له والواغل الذي يدخل على القوم من غير اذنهم والوغل الذي يحضر الشراب ولم يدع عليه والوغل الشراب ايضا ۞
95 ويروي ولكن يقي الاعادي والمحتد الاصل ۞
96 الغَمّ والغُمّ واحد الا انهم لا يستعملون بالقسم الا الفتح لكثرة استعمالهم اياه والغمة الامر المبهم لا يهتدي له والسرمد الطويل ۞
97 اصل العراك الازدحام اي صبرت نفسي عند ازدحام القوم في الحروب والخصومات وعوراتها اي مخافة العدو

F I N I S

MOALLAKAH. 37

Nam ſi obſcurus eſſem inter illuſtres, profectò noceret mihi odium & amicis ſtipati, & ſolitarii.

95 Sed homines a me propulſat mea in ipſos audacia, & aggreſſio, & ſtrenuitas, & proſapia.

Res meæ, ita valeas, neque interdiu me ſollicitum tenent, neque nox mihi mea nimis longa.

Per diem, quo firmavi pedem in conſtipata acie & inter minas, loca mihi patentia præmuniens,

In campo, ubi heros veretur exitium; ubi, cum te in aciem inferas, ſcapulæ contremiſcant.

Perque *aleatoriam ſagittam* flavam, fumoſam, cujus vidi pullum igni adſtantem, & quam ingeſſi dextræ avari:

100 Prodent ſane dies tibi quod ignorabas, & adferet tibi nuncios is, quem nec commeatu inſtruxeras.

Dies, hercle, non ſunt niſi depoſitum; quod itaque ab iis beneficii potes obtinere, capta.

العدو كقوله تعالى بيوتنا عورة اي حذا العدو ويروي روعاتها اي فزعاتها ۞
98 الموطن مستقر الحرب والردي الهلاك وتعترك اي تزدحم والفريصة اللحم من اخر الكتف عند الجنب وهي اول ما ترعد ۞
99 يعني بالاصفر السهم والمضبوح الذي غيرته النار وحواره رجوعه اذا جعل علي النار المجمد الذي يضرب بالسهام ۞
100 اي ستظهر لك الايام ما لم تكن تعرفه ويأتيك بالاخبار من لا تامره ان يأتيك بها ولا تزوده ۞

F I N I S.

الصحيفتان الاخيرتان لكتاب رايسكه عن معلقة طرافة، مع متنها وترجمتها اللاتينية.

وهو رسالة فى التاريخ الاسلامى، نشرها تلميذ له، يدعى ى. ب. كولر Köhler سنة ١٧٦٦ فى كتابه عن ابى الفداء فى شكل ملحق (ص ٢١٥ – ٢٤٠) وفيه يرفض رايسكه فى مستهل مقدمته استعمال التعبير «شرقى» لانه غير مضبوط ، ويستعمل بدلا منه تعبير «محمدى» او «مسلم» لان هذا العلم يبحث عن تاريخ المسلمين لا فى الشرق فحسب بل ايضا فى افريقيا واوروبا ؛ ويريد المؤلف ، كما قال ، معالجة مادته فى ثلاثة ابواب: اولها البحث عن الملل والسلالات ، ثانيها عن البلدان التى وقعت فيها هذه الحوادث التأريخية ، وثالثها عن المصادر التى تخبرنا عن هذه الوقائع . ويلى هذا التمهيد الصريح بيان واضح حسن النظام .

الباب الاول (ص ٢١٨ – ٢٢١) يعدد العناصر الخمسة التى لعبت دوراً فى تاريخ الاسلام ، وهم العرب ، والايرانيون ، والاتراك والتراكمة ، والمغول والتتر ، والبربر ؛ ويبين موجزاً السلالات التى اخرجتها كل أمة ، ويشير فى ملحق للباب الاول مرة اخرى الى اماكن هؤلاء السلالات وكيف انتشرت من الاندلس الى الشرق الاوسط. وفى الباب الثانى يذكر المؤلف استناداً الى آثار ابى الفداء ، الممالك الاسلامية ومدنها المهمة ويبحث ايضا بوساطة مقدمة العالم العربى نفسه عن البحور والانهار والجبال وينجز الباب مشيراً الى ما يجب ان يلم به من المعلومات على مدرسى الجغرافيا التأريخية . ويحتوى الباب الثالث – وموضوعه المنابع التأريخية – على فهارس الكتب النقدية مبتدئاً بتأليف ديربلو d'Herbelot المسمى ب Bibliothèque Orientale (المكتبة الشرقية ، وهى قاموس شامل على كل ما كان معروفا فى اوائل القرن الثامن عشر عن المواضيع الشرقية) ؛ ويقدر رايسكه هذا التأليف غاية التقدير ؛ ويذكر فيها بعد المطبوعات المعدودة التى يمكن ذكرها بهذا الخصوص وهى : E. Pocock

وتأليفات جرجيس المكين (المتوفى ١٢٧٣) ، وابى العباس احمد الفرغانى المنجم المشهور فى اوروبا منذ القرون الوسطى ، والاقسام المطبوعة من تاريخ ابى الفداء (وليس فى رأيه ابن عربشاه بمؤرخ حقيقى) ، وما يسمى الجغرفى النوبى Geographus nubiensis ؛ ثم يشير بالايجاز الى كتب الرحلة وما ألف فى اوروبا من الكتب حول التأريخ الاسلامى (مثلا قانتمر ، Pétis de la

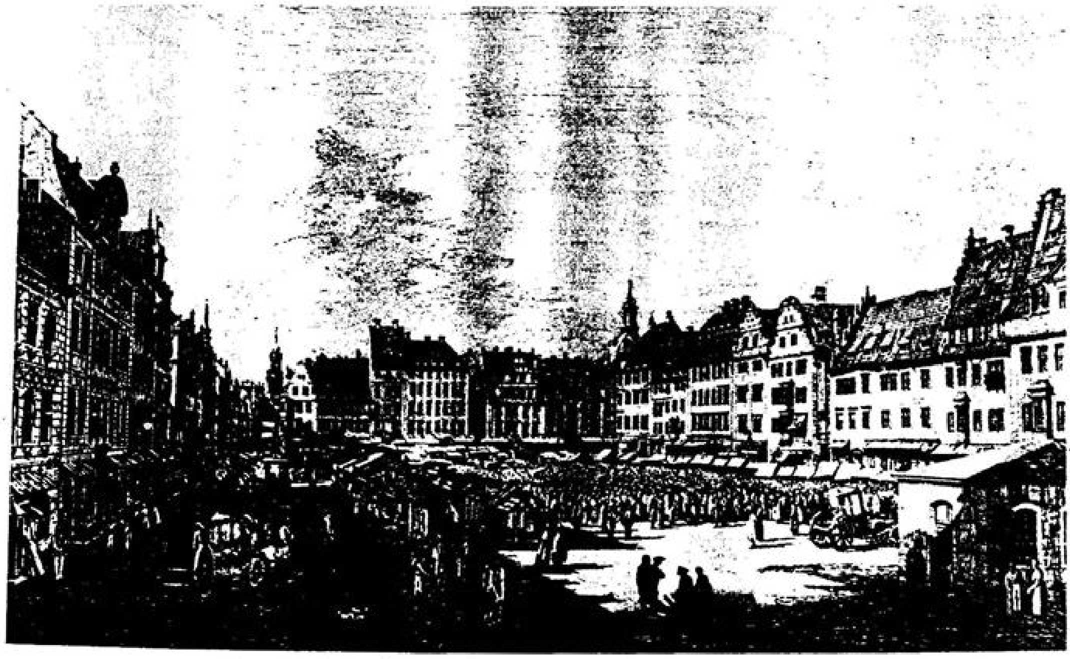
Croix وغيرهما) ، وبعد ذلك يبحث عن المصادر المخطوطة ، اى عن تأليفات ابى الفداء باجمعها ، عن ابن الشحنة ، حمزة الاصفهانى ، كتاب المعارف لابن قتيبة ، كتاب الاشتقاق لابن دريد ، كتاب الامثال للميدانى الذى قدره غاية التقدير . ثم يضيف بعض ملاحظاته فى فهرست المخطوطات الشرقية فى لايدن الذى اعتنى باحضاره هايمان Heymann ، ويتم مقالته مشيراً الى مجموعات المخطوطات الموجودة فى اوكسفورد ، باريس وفلورانسا التى كانت اقل اهمية من مجموعة مكتبة لايدن .

بعد ان عالج رايسكه موضوعه فى هذه الابواب الثلاثة ختم كتابه — على عادة عصره — بمديح يستحق المطالعة حتى فى ايامنا هذه ، يمدح فيه التأريخ الاسلامى ويوصى مواطنيه بمتعدد الاسباب على درس هذا التأريخ الذى كان يهمل كثيراً فى اوروبا . ومع ان هذه التصريحات كانت مخصّصة لطبقة القراء غير الاختصاصيين فى هذا الحيز والذين لا علاقة خاصة لهم بتفرعات هذا العلم فقد اراد المؤلف استرعاء اهتمامهم لهذا الموضوع الجديد ، وبالرغم عن ذلك فان هذا المديح دليل صريح لادراك تصورات رايسكه ونظرياته العامة وإن نقص احيانا ارتباط منطقى ؛ تدل هذه السطور على ان العالم رأى تأريخ الشرق كقسم لتأريخ العالم العام ، وانه ظن ان درس هذا التأريخ كان واجبا على الانسان لاجل التواتر التأريخى ، كما أعتبر ايضا درس تأريخ اليونان والرومانيين القديمين واجبا على كل رجل مثقف وقد اجمع العلماء فى العالم على ذلك اجماعاً كاملا ولا ينكر احد اهمية التاريخ القديم . لقد تحقق لرايسكه من وصف ايران فى اثناء القرون الوسطى بقلم ابى الفداء انه كانت هناك عين الامم والاقاليم . وعين العادات وانواع الحكومة التى تحققت له من مطالعته تأريخ هرودوت اليونانى ووصفه لايران القديمة . لذلك يطلب العالم من المؤرخ ان يعقب ما حدث فى مدى العصور لتلك الممالك والولايات فى الشرق وفى افريقيا التى فتحها اليونان اوكانت من توابع الامبراطورية الرومانية ، ويراعى ايضا العلاقات المتبادلة والحوادث المشتركة بين الغرب والعالم الاسلامى التى كانت موجودة منذ ايام شارلمان الامبراطور الالمانى فى ايام هارون الرشيد ومنذ تأسيس دولة الروم ، من عهد النورمان فى صيقليا والصليبيين الى فتوحات الاتراك العثمانية ، ويشير الى الفائدة التى سيحصلها مؤرخ الغرب من درس الشرقيات . وكثيرا ما اكد لقرائه بان التأريخ الشرقى لا يقصر عن تاريخ الغرب معنى او قيمة او محتويات ؛ وصرح بان المتخصص بالتأريخ كثيرا ما يرى الكفر والظلم ظافرين بلا عقاب يعيشان فى سعادة فانية بينما يرى ايضا التقوى وبساطة الخلق مهملين على سطح الارض او مداسين فى التراب ، فيبدو للناظر المتحير كأن كل شيء دائر فى دور عظيم مهول تحركه قوة عمياء مجهولة ، ومع ذلك لا يشك بان الثمر الاحلى والمحصول الاهم الذى انتجه درس التأريخ هو ادراك القوى التى تستير الافعال البشرية كما كشف عنها تأريخ بنى آدم . ومن اراد ان يتعلم من درس التأريخ مناهج السياسة ، ومن رغب فى تبصر الحكمة الالهية او طرق القضاء الاعمى ، او من ود ان يتفحص الاخلاق والشيم البشرية فانه يجد لذلك فى تأريخ الشرق امثلة بارزة عين البروز كما يجدها فى تأريخ اوروبا . ولا يتردد رايسكه بان يعطف على اعمال طغرل السلجوقى ، جنكز خان ، تيمور ومحمد الفاتح اهمية وقيمة اكبر من قيمة فتوحات اسكندر الاكبر . وبلغ اعجابه بملوك ايران القديمة حدا انه شبه انتصار اليونان على الايرانيين بتصلف برغش يزعج الافيال . ونظر الى تاريخ الاسلام بعين طويلة النظر ، وان أعتبر ظهور محمد والفتوحات الدينية من الحوادث التأريخية التى لا يفهم معناها العقل الانسانى بل يرى فيها حكم القدرة الالهية ؛ ويرى فى قبض بنى امية عنان الدولة وفى الآلام التى قاساها آل على بن ابى طالب قضاء الهياً . وتمسك ب«تشيع حسن» كما وجد هذا التشيع فى مصادره التأريخية غير القديمة العهد : اى انه اعتبر علياً الخليفة الحقيقى للرسول وقد منعه احيال الشورى ودسائسه من حقه الموروث لمدة ٢٤ سنة . ويرى فيه احسن ملك ظهر فى العالم الاسلامى ، ملكا شجاعا ، عادلا امحاه القضاء والقدر ، واباده بغض عائشة الطموحة . ويرى رايسكه فى مجادلة على ومعاوية مثالا امثل لظفر الحيلة على القوة ، لفوز الرداءة على الامانة ؛ حتى انه لا يكتفى بذلك المديح بل يقارن بين على بن ابى طالب ومارك أورل ، الامبراطور الرومانى الذى يسمى «الفيلسوف على السرير» . وتدعوه احياناً هذه الرغبة فى التشبيه الى ان يكشف كثيرا من المشابهات بين التطور التاريخى فى ممالك الاسلام وفى اوروبا لكى يثبت لقرائه انه قد وقع على مسرح الشرق من المشاهد السامية المهذبة مثلما جرى فى الغرب .

وفى ابان هذه السنوات كتب رايسكه كتابا اخر عنوانه :

de Principibus Muhammedanis literarum laude claris

فانعم عليه ملك ساكسونيا فى مدينة دريسدن لقب «الاستاذ» وخصص له معاشا سنويا مقداره ١٠٠ تالر ، بيد ان الحكومة



برناردو بلوتو المسمى بـ «كاناليتو» Canaletto: السوق العتيق فى مدينة دريسدن وشارع القصر. نحت على النحاس، سنة ١٧٥٢.
تصوير: الفوتوتك الالمانى بمدينة دريسدن Deutsche Fotothek, Dresden

برناردو بلوتو المسمى بـ «كاناليتو» Canaletto: ايوان القصر المعروف باسم «تسوينجر» Zwinger مع «باب التاج» والجسر على نهر ايلبه.
نحت على النحاس، سنة ١٧٥٨.
تصوير: الفوتوتك الالمانى بمدينة دريسدن .Deutsche Fotothek, Dresden

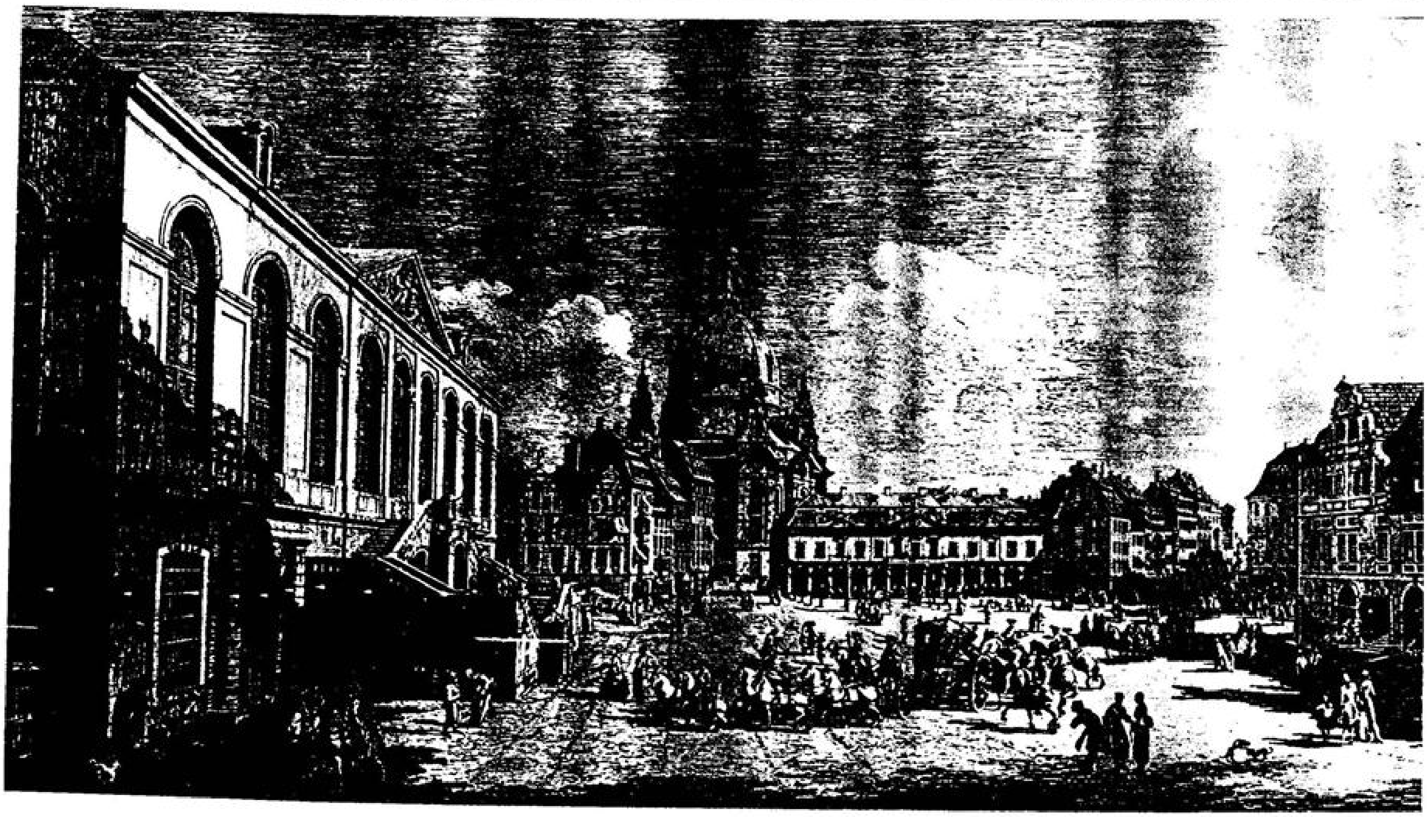


ادريان تسوينك A. Zwingg (١٧٣٤–١٨١٦): منظر مدينة دريسدن سنة ١٨١٥.
محفوظ فى متحف دريسدن المخصوص التصويرات المنحوتة على النحاس Kupferstichkabinett
تصوير: الفوتوتك الالمانى بمدينة دريسدن .Deutsche Fotothek, Dresden

برناردو بلوتو المسمى بـ «كاناليتو» Canaletto: السوق الجديد فى مدينة دريسدن، نحت على النحاس، سنة ١٧٤٩.
تصوير: الفوتوتك الالمانى بمدينة دريسدن Deutsche Fotothek, Dresden

اننا نهدف بايراد هذه الرسوم ان القارئ يصوّر منظر مدينة المانية مشهورة فى القرن الثامن عشر، و كانت هذه المدينة مركز المملكة الساكسونية التى كانت وطن العلامة رايسكه، و ساق السا [illegible]





لم توف هذا المعاش الا بين الحين والآخر حتى انقطع تماماً بعد سنة ١٧٥٥ . وسرعان ما تدهورت وضعيته الاقتصادية ويقرض للفاقة والحرمان كما كانت حالته من قبل ، ولم يرقه احد اذ اتهمه اللاهوتيون بالزندقة لانه لم يتراجع عن اصراره آلا يسمى محمدا «نبياً كاذباً» و«خداعاً» والا يصف دينه خرافة مضحكة ولانه لم يقسم تاريخ العالم الى قسمين ، احدهما التأريخ المقدس ، والاخر التأريخ الدنيوى ؛ بل كان يحصل لتأريخ الاسلام منصبا فى وسط التأريخ العام .

زد على هذا ان رايسكه لم يتردد باظهار رأيه بكل صراحة غير مبال بالنتيجة ، واحدث ذلك خصومات شديدة ؛ فمثلا قام الاستاذ شولتنس الفلمنكى فى سنة ١٧٤٨ بنشر طبعة جديدة لكتاب النحو الذى الفه اربنيوس (سنة ١٦١٣) وما كان ذلك الا تكرار طبع المؤلف الاصلى كما كان اعتنى به جوليوس ، خليفة اربنيوس ، دون ان يغير فيه شولتنس كلمة واحدة بل ابقى على ما فيه من اساطير لقمان ومن الامثال الا انه اضاف الى هذه المادة الموروثة اشعاراً منتخبة من الحماسة ولم يخل هذا المقتطف من الغلطات ؛ ثم الف شولتنس مقدمة طويلة لهذا الكتاب رد فيها نظريات بعض شارحى التوراة من اليهود ومن يقول قولهم من النصارى فى مسألة قدسية اللغة العبرانية . واعترض رايسكه على المقدمة قائلا بانه لا يليق ذكر هذه المسائل المتعلقة بتفسير التوراة فى كتاب يبحث عن النحو العربى ، ولا جدال فى ان مطالعة اشعار الحماسة ليست بمناسبة للمبتدئين بدرس العربية .

وفى العام نفسه نشر شولتنس ترجمة لكتاب امثال سليمان مع شرح له مستعملا فيه منهاج البحث عن مشتقات الكلمات بلا حرج . وقام رايسكه بمراجعة هذين الكتابين فى Nova Acta Eruditorum وهى مجلة علمية من نشر السيد منكن. وألزمه ضميره فى هذا النقد الأدبى أن يصرح عن الحقيقة بشأن الكتابين . ومع أنه حافظ على الأحترام اللائق تجاه شولتنس فأنه أدرك من الوقع الذى سببه فقط انه كان من الأفضل لو كان قد قام احد غيره بهذه المهمة . ولكن شولتنس الذى كان معتادا على المشاجرات الأدبية والذى لم يجترئ احد حتى ذلك الوقت الشك فى كونه معلم عصره فى العربية قام بالدفاع عن نفسه ببعث تحريرين الى «منكن» طالبا منه أن ينشرهما ويوزعهما الى جميع الجهات . وفيها خرج بالنزاع الى المضمار الشخصى وافترى على رايسكه غاية الأفتراء بحيث لم يبق ذلك دون نتيجة . وكان لهذين المكتوبين تأثير كبير فى المانيا — وكان شولتنس قد ارسلهما الى جميع اساتذة الكلية بلايبزج — فلم يستطيعوا تقدير ما عرضه رايسكه من الاسباب الواقعية ولم يتمكن احدهم من المقارنة بين الرأيين مقارنة علمية كما لوكانوا اختصاصيين فى الموضوع . ولم يمد احد يد المساعدة لرايسكه ومضت عليه سنة بعد سنة دون ان يعينه معهد ما فى المانيا او فى خارجها استاذا ولم يفده اثباته فى نشرياته انه كان متبحرا فى اللغة اليونانية ايضا لأن خصيمه فى هذا المضمار كان الاستاذ ارنستى Ernesti ، استاذ اللغات القديمة واللاهوت معاً . — فى سنة ١٧٥٣ حاول الاستاذ بوبوويتش Popowitsch فى جامعة ڤينا ان يجد منصباً لرايسكه لدى السفير النمساوى فون شواختهايم الذى سافر الى استانبول سفيرا عند الباب العالى ، وفشل هذا الترتيب لان رايسكه ابى ان يتكتلك . واستمرت احواله المالية تملى عليه الضيق والحرمان ، وخاصة عندما توقف الملك الساكسونى عن اداء معاشه فى عام ١٧٥٥ .

ولما يئس رايسكه من حاله توجه فى اواخر سنة ١٧٥٦ الى الاستاذ ى . د . ميخائيليس Michaelis (١٧١٧ الى ١٧٩١) فى مدينة جوتنكن الذى كان زميله فى المدرسة . ولم يشعر العالم الساذج الذى لم يكن له دراية لا بالناس واخلاقهم ولا بالدنيا ودناياها انه وضع حياته فى يدى انانى مدبر للمكائد . روى له رايسكه ما جرى له من تصرفات الدهر ومن الضيق وافهمه انه لو عينه استاذا فى معهد جوتنكن لأجبرت الحكومة الساكسونية على معونته حتى ولوكان هذا التعيين المفروض ظاهرا وغير حقيقى ؛ واضاف الى هذه الكلمات — وكان مخلصا غاية الاخلاص مستقيما — ان ضيقه وفقره قد منعاه من ان يخدم ركاب الادب العربى اكثر مما خدمه حتى الآن ، ولو تحسنت احواله فانه سيأخذ فى طبع كتبا عربية ويعتنى خاصة بطبع قاموس صغير للعربية ؛ وان لم يساعده الله بالقريب العاجل فيصبح لا فائدة منه للادب العربى. ورغم انه كان لميخائليس تأثير واسع ونفوذ كبير بين اهل العلم فى المانيا فانه لم يرغب فى التوسط لأجل عالم فاقه بكثير فى اتقان اللغة العربية ... وكان وقوفه هو على العربية ناقصا لا يعتد به ، وظن مثلا ان الاعراب كان من مخترعات النحويين العرب، ولعلهم ادخلوه متبعين المثال الاوروبى ؛ وكان يعترف نفسه بانه يجهل تطبيق العروض ومع ذلك تجرأ ان يترجم ويشرح المقتطف من الحماسة الذى نشره شولتنس ، وكان عظيم الافتخار بطريق تعليمه للغة العربية ومنهاج تدريسه .

ولما كان عليه من الاعتداد بالنفس وحب الظهور والاستبداد لم يرد ان يشتغل احد سواه فى هذا المضمار . ولذلك تظاهر

بالغيظ لما جاءه طلب رايسكه ، حتى انه حول مكتوبه الذى لايشك فى ماهيته الخاصة الشخصية الى وزير المعارف فى مملكته مشيراً اليه بالرد ، ثم قدم لرايسكه الرد الوزارى ضمن خطاب رسمى صارم .
واطاح ذلك المكتوب بآمال رايسكه كلها ، فادرك انه لن يتعين استاذا فى معهد ما بعد ذلك ، فاخذ فى السعى الى وظيفة فى مدرسة . فاصبح عميد مدرسة نيكولاى فى لايبزج بيد ان «صديقا مرائيا» اراد منع هذا التعيين بدسائسه وكاد ان يوفق بذلك . ولكن رايسكه كان قد وجه اهتمام الوزير كونت واكر بارت الساكسونى الى شخصه عندما عرّف السكك العربية فى مخزن متحف مدينة دريسدن سنة ١٧٥٦ . وكفت شفاعة هذا الوزير لتبديد كل ما اظهر اهل الكنيسة من الشكوك عندما اختير رايسكه عميدا للمدرسة .

وبهذا وجد رايسكه بعد سنوات الضيق والفاقة الطويلة ملجأ امينا ، فاستمر بالعمل فى ميدان الادبين العربى واليونانى فى اوقات فراغه من المدرسة . ولكنه لم يجد ناشرا لهذه المؤلفات فكان عليه ان يقوم بمصاريف الطبع بنفسه . وكان قد نشر فى عام ١٧٥٤ المجلد الاول من ترجمته اللاتينية لتأريخ ابى الفداء ولكنه لم يتمكن من بيع اكثر من ٣٠ نسخة منها ، ولذلك أجبر على الكف عن الطبع . ومن ذلك الحين اقتصر على النشريات الصغيرة ؛ وفى عام ١٧٥٥ اعتنى بنشر رسالة ذات اهمية كبرى لما تحتوى عليه من تلميحات واشارات تأريخية ارسلها ابن زيدون الى ابن عبدوس . وهناك رسالة صغيرة الفها ردا على تهنئة صديق له قدمها له بمناسبة تعيينه فى وظيفته الجديدة ، وكان صديقه قد ذكر فى شعر لاتينى عصا يعقوب والصولجان المذكور فى الادب اليونانى ، فشكره رايسكه برسالة صغيرة بحث فيها عن سبعة امثال عربية تعالج العصاة وقد اخذها عن كتاب الامثال للميدانى الذى كان مغرما به جدا . اما فى السنة التالية فقد عالج فى برنامج المدرسة اكثم بن صيفى احد «حكماء» الجاهلية استنادا الى كتاب الميدانى المذكور ولم يفهم احد من الناس مقصد هذا المقال واقتصروا عن ادراك اهميته العلمية حتى ان رايسكه كف عن تدوين برنامج اخر فى المستقبل .

وكان المتن العربى الاخير الذى قدمه للعالم منتخبات من ديوان المتنبى كمثال للشعر العربى . ونشر نحو اثنى عشر ابيات عشقية ومرثيتين فى سنة ١٧٦٥ ، واهدى هذه الباقة الشعرية الغرامية لزوجته التى اهلها بعد انتظار طويل فى سنة ١٨٦٤ ، وحبا لها اجتنب فى شرح هذه الغزليات الايضاحات العلمية واكتفى بتعريف كلمات الشاعر وايضاح عالم شعوره للقارىء الغربى الذى كثيرا ما وقف مكتوف اليدين تجاه بعض التعابير الشرقية ، وحاول تقدير قيمة اشعار المتنبى من وجهة نظر علم الجمال .
وتحقق مرامه الذى عبر عنه فى اهداء هذا الكتاب وهو : ليت شعرى ان يبقى اسم زوجى مقرونا باسمى ، معروفا عند الناس ! لان مادام اسم رايسكه يذكر سيذكر ايضا اسم رفيقته التى رافقته بوفاء تام وشجاعة مثيلة . لما توفى رايسكه فى ١٤ آب ١٧٧٤ على اثر مرضه بالسل — ولم يكن قد اتم العام الثامن والخمسين من عمره — اهتمت هى بتركته القيمة حتى لا تقع فى يدى خصمه ارنستى ، واستودعتها لسينك Lessing المؤلف الالمانى الشهير الذى كان من القليلين الذين قدروا قيمة رايسكه اثناء حياته ؛ وحفظ لسينك هذه التركة الى ان اشتراها حاجب الملك الدانماركى السيد فون سوم . ووصلت المكتبة فى كوبنهاجن بعد وفاة هذا الرجل الشريف .

نشرت زوجة رايسكه تاريخ حياة زوجها الراحل كما دونه نفسه قبل وفاته ، وهذا كتاب يمزق القلوب . ولم تخف من مجادلة اولائك الذين ظهرت سفالتهم وحقارتهم فى هذا التأليف ونشرت ايضا سنة ١٧٧٩ «نظريات فى كتاب ايوب» و«امثال سليمان» التى دونها رايسكه سنة ١٧٤٩ ، مضيفة عليها متن خطابه الافتتاحى الذى القاه فى ٣١ آب ١٧٤٨ فى كلية لايبزج . وسادها شعور بالرضى عندما رأت ان العالم المتوفى حصل على التقدير الذى نكروه عليه فى حياته . ونشر جرونر Gruner فى ١٧٧٦ للمرة الثانية اطروحة رايسكه . واما ى . ج . ايشهورن Eichhorn ، وهو ايضا من المستشرقين ، فنشر سنة ١٧٨١ المكاتيب التى بعث بها رايسكه عام ١٧٥٧ بخصوص مسألة السكك العربية الى مدير الخزينة فى متحف مدينة دريسدن .

وقد رفع رايسكه من شأن علم اللغة العربية وادبها وجعله علماً مستقلا . لم ينتبه احد من معاصريه الى استقلال هذا العلم وعدم ارتباطه بغيره من العلوم اللغوية واللاهوتية مثلما ادرك ذلك رايسكه ، ولم يتوجه احد بهذه اليقظة ضد فقه اللغة المقدسة philologia sacra الذى كان مسيطرا على عقول العلماء فى ذلك العصر ، وكان مقصد هذا النوع من علم اللغة ان صاحبه لم يهتم بالعربية الا من حيث اسدائها له فوائد جمة فى تفسير العهد القديم ، وكان يكتفى بالبحث عن اصول كلمات عربية فى القاموس العربى لجوليوس ويقابلها بكلمات عبرانية مختارا له من المعانى المختلفة لكل كلمة المعنى الذى يوافق اغراضه . ورغم ان

احدى مميزات عصره كان نوع العلم المدعو بـ Polyhistorismus اى ان العالم تخيل انه بامكانه لا بل من واجبه تحصيل العلوم كلها والوقوف على التطور التأريخى باجمعه فقد عرف رايسكه ان للطبيعة الانسانية وللعقل الانسانى حدا ونهاية؛ لذلك كف مرة عن تحصيل آثار المؤرخ الرومانى سيسرو «لاجل لانهائية الاعمال، للنقص فى الوسائط ولميل عظيم لليونانيين» كذا وقد كرس وقته باكمله للعربية فقط ورفض اضاعة وقته وقوته فى تحصيل اللغات المتجانسة. وكان غرض رايسكه اثبات الوحدة الباطنية الروحية لعلومه اللغوية والتأريخية والادبية، ولم يهتم بالعلاقة الظاهرة بين اللغات السامية. مما لاشك فيه انه كفقيه فى اللغة رأى اصل العلم واساسه فى درس عميق للغة نفسها، وكان معلوما عنده ان لا يهدى الى وقوف حقيقى على اللغة العربية الا طول الاناة والصبر فى مطالعة آثار المؤلفين العرب سنة بعد سنة بلا انقطاع، وتحقق له بان مؤلفات العرب المسلمين افضل من كل ناحية من مؤلفات العرب النصارى بكثير. ولم يكن يخفى على فراسته ان طبعات التوراة والانجيل العربية ترجمها إما نصارى شرقيو ممن لم يكن لهم علم باليونانية او العبرانية او العربية. اوانها كانت تراجم عجمية على ايدى اليسوعيين الذين لم يعرفوا الا الفلجاتا (اى الترجمة اللاتينية للتوراة والانجيل من القرن الخامس م). ولذلك اجتهد رايسكه فى فتح طريق الى خزائن آداب العرب المسلمين وتوفق فى ذلك واصبح هاديا للاخرين. ولكن درس اللغة لديه ليس غرضا بنفسه بل رأى فيه اساساً للكشف عن التاريخ.

ونظرته هذه ادت به الى ادراك اهمية الدور الذى لعبه الاسلام فى تأريخ الشرق. فانه لم ينظر الى المتون العربية نظرة اللغوى الصرف الذى لا يكترث الا لفهم معانى الكلمات كما قصدها المؤلف نفسه بل نظر اليها نظرة المؤرخ الذى جعل لتأريخ الاسلام مقامه من تأريخ العالم العام، وكان يشرح هذه المتون مثلما يشرح المشاهد فى دار التمثيل عند تأمله فى الوقائع الجارية على المسرح اذ يقوم بالفحص عن بواعث الاشخاص الممثلين وعن مراد الشاعر. ورغم ان رايسكه لم يتوفق بتأليف «تأريخ الاسلام» كما اراده فانه هذا العالم البعيد النظر وضع اساساً للعلوم الاسلامية العصرية التى تبنى كعلم تاريخى على اساس علم اللغة العربية. اما معاصروه فلم يستطيعوا فهم افكاره الجسورة ولا تأملاته الجليلة فصار «شهيد الادب العربى» كما سماى نفسه، واصبح تاريخ حياته تأريخ الآلام والظلم كما تشهده مذكراته المؤثرة. وكما ان للجرأة التى سار بها دون اكتراث على الطريق الذى اعتبره مرة صحيحة أثرا ساميا فانه من المخجل انه لم يكتشف احد من اول الامر فى جامعات اوروبا اهمية هذا الرجل العبقرى العظمى؛ هذا الرجل الفذ الذى كان من اعظم علماء الاداب العربية، ومن المخجل كذلك ان هذه الاداب التى اراد تشييد بيت لها لم تحصل فى المانيا القبول الذى استحقته. ولكنه من الطريف ان نذكر ان اسس فى القرن التالى فى لايبزج اى فى عين المدينة التى قاسى فيها ما قاسى معهد لدراسة اللغة العربية يفتخر بان يعتبر رايسكه من اجداده الروحانيين.

ويأتيك بالاخبار من لم تبع له
بتاتاً ولم تضرب له وقت موعد

طرفة